الإبداع الفني والفكري:

بعيداً من الذات ، قريباُ من الوجود

بقلم: عماد أجحا

في جدالاتنا الفكرية نكاد لا نميز أحياناً بين مفهوم النقد ومدلوله العملي الصحيح وبين ما نسميه إساءة أو حتى ما نعتبره مسا بكرامة الآخر وتنقيصا من قدره . ذلك أن مدلول النقد عندنا ارتبط دائما بما هو شخصي وذاتي ، فلا يكاد يتعرض مفكر أو كاتب أو فنان لجملة انتقادات ، موجهة بالأساس نحو مادة أفكاره وإبداعاته الأدبية أو الفنية ، حتى يأخذ الأمر على منحى ذاتي شخصي أحادي الطرف فيعده تشكيكاً في قدراته الذهنية والإبداعية ، وذلك من منطلق اقتناعه بأنه لا فرق بين انتقاد الفكرة وانتقاد صاحبها مادامت الأولى تنتمي إلى الثاني ومادام الثاني هو صاحب الأولى ومالكها الأصلي ومبدعها الوحيد.

مؤكد أن ردود الأفعال التي تتبع معظم الجدالات والإنتقادات المتبادلة بين المفكرين تكشف عن طبيعة فهم معين لمفهوم التفكير والإبداع الفكري والأدبي/الفني، مفاده أن الفكر من إبداع فرد مفكر وأن الأفكار إبداعات شخصية لا تخرج عن نطاق الذاتية تقع المسؤولية فيها على كاهل الفرد الذي يفكر . لذلك فليس من الغريب في شيء ، عند البعض ، أن يُعد انتقاد مفكر أو كاتب لآخر انتقاصاً من قدراته المعرفية والإبداعية وتشكيكا في مكانته العلمية.

لكن ، وإن كان هناك من يزعم لنفسه نبوغا في الفكر أو أنه مبدع أفكار وأنساق وهو باريها الأصلي ، فمن أجل زعزعة يقينه ذاك ومحاولة تغيير معياريته الذاتية في الحكم على أصل نشوء الأفكار، ليس من الضروري الرجوع إلى ثنائيات الذاتي والموضوعي الكلاسيكية . فلم يعد يكفي الآن القول أن الأفكار متجذرة في المجتمع وأنها تنمو في حضن إطار موضوعي ، أو أنها تتحدد برغبات ونوايا الأشخاص . فمع الفكر المعاصر صار الفكر منظوراً إليه من منظور جدلي ليس هو مجرد فكر شخص بعينه، وليس رهين ذهن وتفكير ذات مفكرة . إن الحركة الجدلية للفكر لا تقف عند حدود حركية واقع بعينه ولا عند توارد خواطر وتأملات على وعي الإنسان، بل إنها ترتد وتعود إلى ما هو أعمق وأشمل ، أي إلى حركة الوجود في كليته . فالفكر لا يخضع لأهواء الأفراد ، كما أنه ليس استجابة لظرف وللحظة بعينها بقدر ما هو صدى للوجود وانعكاساً لقوانينه.

تحيلنا رأساً طبيعة هذا الربط بين الفكر والوجود إلى فكر الكينونة عند فيلسوف الغابة السوداء المرعب مارتن هايدجر . هايدجر الذي يعتبر الفكر شكلاً للإفصاح عن حقيقة وجوهر وجود الموجود لا يتوانى في إعلان وحدة تاريخية بين الفكر والوجود . لذلك فإن الفكر لن يكون عنده إلا صدى وتاريخاً للوجود .

الفكر في جوهره عند هايدجر هو أنطولوجيا ، أي حقيقة ينكشف من خلالها الموجود بما هو موجود . والحقيقة على هذا الأساس لن تكون إلا إنكشافاً لوجود الموجود في ماهيته وكيفية وجوده وليست هي ما يلقنه ويمليه هذا المفكر أو ذاك ، لأن حقيقة الوجود سابقة علينا كذوات وغير متعينة أو مرتبطة بواقع أو ظرف تاريخي اجتماعي مخصوص . إن منطق الوجود هو الذي يقوم بانتداب المفكر القادر على الإفصاح عن حقيقة هذا الوجود ، وعلى هذا فإن الفكر والإبداع الفني والأدبي تنتفي وتزول عنهما صفة الذاتية بالقدر الذي يكون الوجود هو من يوحي للمفكر أو المبدع بأسراره وحقيقته ليعبر عنهما من خلال مادة إبداعاته . ولذلك فإن الوجود هو الذي يصطفي هذا المفكر أو ذاك ليعبر على حقيقة كينونة الكائن وينتقل بها إلى حيّز اللغة ، فليس المفكر هو من يختار حقائقه وموضوعاته وأفكاره بل هي من تختاره كنوع من سطوة الكينونة وأسبقيتها على الفرد والتاريخ ، وليس المبدع هو من يطوع اللغة ويبدع بها ، بل اللغة هي من تتكلمه وتفكر بواسطته (1) .

لقد انشغل هايدجر ، فترة العشرينات والثلاثينات ، بمحاولة استعادة المكانة الحقيقية للفلسفة وذلك ضداً في الاتجاهات التي حجمت أفق الفلسفة وعطلت دورها لصالح العلم أو الأخلاق أو الفن . وهكذا فإنه أعاد لها سلطتها وهيبتها المطلقة التي افتقدتها مع فكر الحداثة ، وجعل من الفلسفة شكلاً للإفصاح عن حقيقة وجود الموجود بعد أن تم نسيان الوجود لصالح الذات . ولذلك كان من اللازم على هايدجر الدخول في عملية نقد ومجاوزة لأهم خصائص وثوابت المشروع الحداثي . وما يهمنا هنا هو تأسيسه لأنطولوجية شعرية مخالفة لما ذهبت إليه الاتجاهات اللسانية التي ضخمت من قامة الإنسان، وبذلك أكدت ارتباطها اللصيق بفلسفة الذاتية ومشروع الحداثة الفكري ككل . فخلافاً للاتجاهات اللسانية تلك فإن شعرية هايدجر تقوم على مقومات لا إنسية ولا ذاتية كونها تظل مشدودة إلى حقيقة الكينونة ومناهضة لفلسفة الذاتية(2) .

يتصرف الإنسان عادة كما لو أنه واضع اللغة والماسك بعقالها ، في حين أن اللغة كما يتصورها هايدجر ، خلاف لكل ذلك هي من تبسط سيادتها على الإنسان . فالكلام الذي يتكلمه الإنسان واستعمالاته للغة لا تعني امتلاكه لها وتحكمه فيها ، بل إن اللغة هي من تتكلمنا أثناء الكلام وهي من تشير إلينا بعلاماتها ورموزها حتى ينفتح العالم أمامنا وتنبسط لنا أسراره شفيفة واضحة . إن اللغة هي كشف لحقيقة الموجودات وتعبير عنها ، وهي لا تعكس التجربة الذاتية لهذا الشاعر أو لذك الكاتب إزاء العالم ، بل إنها تدشن وجود الأشياء وتخلق العالم الذي يتأمله كل من الشاعر والمفكر ، وبذلك تنمحي الذات إزاء الوجود ، وتتشظى ذاتية المبدع والفنان في فسحة الكينونة.

يدعونا هايدجر إلى التحرر من التصور الحداثي للغة والشعر والفن الـذي أغـرقتهما الحداثـة في منحـدرات فلسفة الذاتية ، ويهيب بنا لنعود أدراجنا صوب لحظة الفلسفة السابقة على سقراط لـنربط اللغـة والشـعر والفـن بحقيقة الوجود . لم يكن الفن أبداً عند الإغريق تجربة إستيطيقية شخصية لذات مبدعة ، بـل كـان الفـن عنـدهم لحظة انكشاف للوجود وحضور للكائن في كينونته . ولهذا فإن الفنان حسب هايدغر لا يبدع ولا يخلـق مـن تلقـاء ذاته كائنات وأشياء جميلة ، إنما الفنان فقط يـدع الكائنـات وأعيـان الموجـودات تأخـذ محلهـا مـن الكينونـة وثـم يحفظها ويشملها بالرعاية حتى تأخذ نصيبها مـن الوجـود ، فهـو إذن حافظهـا وراعيهـا ولـيس مبـدعها وخالقهـا . وهكذا فالفن لا ارتباط كبير له بوجدان الفنان وعواطفه الشخصـية ، فـالمنجزات الفنيـة والأدبيـة ليسـت إبـداعات وذهنيات سيكولوجية وحياة نفسية تنطوي على مقاصد وإنما هي إنتاجات يعاد إنتاجهـا ، لأن كـل فـن وكـل فكـر وكل إبداع لغوي في ماهيته ليس إلا انكشاف لحقيقة الوجود والموجود.

.

الحواشـي:

1- : في هذا الصدد يكتب عبد الفتاح كيليطو :

"لست أذكر من قال (ولكم كنت أود أن أكون صاحب القول) إننا ضيوف اللغة ، وهو تعبير جميـل يشـير إلى أننا نقيم عندها وننعم بالخيرات الجمة التي تغدقها علينا بسخاء . وطبعا نـتحلى خـلال مقامنـا في رحابهـا ، أي طـــول حياتنـــا ، بـــالآداب التـــي يتعـــين عـــلى الضـــيف احترامهـــا عنـــدما يكـــون في فضـــاء المضـــيف . لكن يخيل إلي أحيانا أن المتكلم هو المضيف وأن اللغة هـي الضـيفة ، ضـيفة مشاكسـة عنيـدة تحـل عنـده بـدون استئذان ، فتتملكه وتسكنه على الرغم منه ، إننا مسكونون باللغة ، مسكونون بالمعنى السحري للكلمة . وسـيتأكد لدي هذا الارتسام عندما أشاهد أشخاصا يتحدثون بلغة أجنبية لا أفهمها . أصاب حينئذ بالدهشة والذهول ، وأكاد أعتقد أنهم ضائعون في لغتهم ، وأنهم غير قادرين على الإفلات منها ، وأن لا أحد بإمكانه تخليصـهم مـن قبضـتها ، وأن لا شفاء يرجى لهم."

(عبـد الفتـاح كيليطـو ، في ضـيافة اللغـة ، مجلـة فلسـفة ، عـدد مـزدوج 8/7 ، 1999 ، ص ، 24) .

: -2

نستعمل هنا مفهوم الذاتية بالمعنى الذي حملته إياه فلسفة الكوجيطو عند ديكارت . فـإذا كـان العقـل قبل ديكارت يحمل دلالة موضوعية محضة ويشير إلى القانون الأسمى الذي وفقه تنتظم الموضوعات ضمن علاقات

علية وسببية . فإنه مع ديكارت أخذ العقل دلالة ذاتية وصار ذاتياً في جوهره وصارت الذات كيانا عاقلا . وبالتالي أصبحت الذات مؤشراً على انبجاس أزمنة الحداثة ، وصارت الذاتية شعاراً لهذه المرحلة . وبالتالي فإن كل محاولة فلسفية للإنسلال من ربقة الحداثة لابد وأن تمر من انتقاد وتجاوز ، أو استبدال ، معطى الذات وفكرة الذاتية .

ملحوظة :

سبق لهذا المقال وأن نشر في الملحق الثقافي لجريدة الإتحاد الإشتراكي المغربية بتاريخ الجمعة 11 شتنبر 2015 ، عدد : 11.110 .